مجلة جامعة بني وليد للعلوم الإنسانية والتطبيقية
Bani Waleed University Journal of Humanities and Applied Sciences
تصدر عن– جامعة بني وليد – ليبيا
Website:https://jhas-bwu.com/index.php/bwjhas/index
المجلد التاسع ـ العدد الخامس ـ 2024 ـ الصفحات (482-490)
ISSN3005-3900

مفهوم عمود الشعر في العصر العباسي بين النظرية والتطبيق

د.رياض محمد عبدالمؤمن *

قسم اللغة العربية ، كلية التربية ، جامعة بني وليد ، بني وليد، ليبيا

ryadhassan@bwu.edu.ly

The concept of the poetry column in the Abbasid era between theory and application

RIYADH MOHAMMED ABDULMUMIN *

Department of Arabic Language, College of Education, Bani Waleed University, Bani Walid, Libya

تاريخ الاستلام: 30-10-2024 تاريخ القبول: 24-11-2024 تاريخ النشر: 13-12-2024

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف وبيان الأصول والقواعد التي استند عليها صناع نظرية عمود الشعر العربي، وهي النظرية التي عدها أدباء ونقاد القرن الرابع الهجري هي الفيصل في تقييم جودة الشعر من عدمه ، وكفاءة قائله وإلمامه بالشعر وخصائصه ، لذلك اخترت عنوان مفهوم عمود الشعر في العصر العباسي بين النظرية والتطبيق ، وقمت بمحاولة تأصيل جدور هذه النظرية وأسباب ظهورها والقواعد التي وضعها أصحابها من أمثال المرزوقي وابن قتيبة لتحديد جودة الشعر فيها.

الكلمات المفتاحية: أدب عباسي ، معايير الشعر، مقدمة المرزوقي ، عمود الشعر ، نظرية التطبيق.

Abstract:

This study aims to define and explain the principles and rules upon which the makers of the theory of the column of Arabic poetry relied. It is the theory that the writers and critics of the fourth century AH considered to be the decisive factor in evaluating the quality of poetry or not, the competence of its writer, and his familiarity with poetry and its characteristics. Therefore, I chose the title The Concept of the Column of Poetry in the Abbasid Era. Between theory and application, I attempted to establish the roots of this theory, the reasons for its emergence, and the rules set by its proponents, such as Al-Marzouqi and Ibn Qutaybah, to determine the quality of poetry in it.

Keywords: Abbasid literature, standards of poetry, Al-Marzouqi's introduction, poetry column, theory of application.

المقدمة:

يتطلب البحث عن تأصيل مفهوم عمود الشعر، تلك النظرية النقدية التي تقوم على دراسة الشعر العربي، البحث أولاً في أصل كلمة العمود في دواوين الشعراء ورسائل الأدباء وبيان ما إذا كانت لفظة العمود قد ذكرت سواء بمعناها النقدي، أو معناها اللغوي، فهذا الأعشى الشاعر الجاهلي، الذي يعد من أقطاب الشعر الجاهلي يقول:

طويـــــل النجـــــاد رفيـــــع العمـــــا د يحمـــي المضـــاف ويعطـــي الفقيـــر[1]

وهنا يجد المتمعن في بيت الأعشى، أن العرب كانت تصف ذا الحسب والنسب برفيع العماد، وفي معاجم اللغة : العمد هو القصد، والعمود الذي تحامل الثقل عليه في قوة كالسقف، وعمد الشيء : أقامه ورفعه، وعمود القوم سيدهم [2] ، قال تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام " رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة "[4].

ولما كان الشعر نتيجة إبداع ومكابدة، يخرج من نفس الشاعر للتعبير إما عن حالة اجتماعية أو نفسية أو غير ذلك، كان لابد من وضع منهاج نقدي يقوم على دراسة وتقويم شعر كل شاعر لبيان جودته وقيمته الأدبية، وبيان ما طرأ على كل قصيدة من تجديد وإبداع وفقاً لمعايير زمنية أو اجتماعية ، وتعد الموازنات بين الشعراء أو بين المذاهب أو المدارس خير دليل على اتجاه النقاد إلى وضع تلك الأسس لمنهج نقدي متكامل، وتعد قضية القديم والجديد في الشعر، وما عرف عن أقطاب للأدب العربي كأبي عمرو بن العلاء من انحياز للقديم مهما كانت جودته ورصانته إلا أساساً مهد لظهور نظرية عمود الشعر، التي وضع أصولها و أبوابها المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام، والتي رأى أنها تمثل طريقة العرب في الشعر وهي " شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما" [5].

وتعد هذه النظرية كما يرى بعض الباحثين " نتيجة لما استنبطه النقاد والعرب من مفاهيم وتصورات نقدية استقراؤها في الشعر العربي منذ الجاهلية حتى عصورهم التي سجلوا فيها ملاحظاتهم التي اجتمعت في أبواب عمود الشعر [6].

وهنا يجد الباحث نفسه أمام تساؤل حول بدايات التمهيد لظهور هذه المصطلح وهل استخدمت هذه اللفظة ونعني بها هنا عمود الشعر قبل المرزوقي أم أنه لم يسبقه إليها أحد، ويجدر بنا القول إن المرزوقي قد أشار إلى أن أبواب عمود الشعر كانت معروفة عند العرب، وهو استنتاج مسبوق إليه، لكن حصرها في سبعة أبواب لم يسبقه إليه أحد من النقاد العرب، أما من الناحية النقدية فقد تناول هذا المنهج عدد من أعلام النقد قبل المرزوقي نذكر منهم مثلاً الآمدي في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، والذي يرى أن عمود الشعر يكمن في الأسلوب الذي ينشد في الألفاظ السهولة والألفة والوضوح، المبتعد عن الألفاظ الحوشية الغريبة، وأن يتجه منه صاحبه إلى مخاطبة القلوب بأسهل الطرق، وأن يتجنب أسلوب الفلسفة والأفكار الدقيقة، لأنها تجعله بحاجة إلى استنباط وإدامة النظر والتفكير، فيخرج صاحبه من دائرة الشعراء والبلغاء[7]، وهنا نجد الآمدي يجعل من عمود الشعر نظرية تفضل اللفظ على المعنى، فهو يعطي المعنى المرتبة الثانية بعد حسن الأسلوب، ولذلك عُد الآمدي من أنصار البحتري نظراً لغرابة ألفاظ أبي تمام ، كذلك حاول القاضي الجرجاني وضع أسس لنظرية عمود الشعر في كتابه الوساطة فقال : "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبدأه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته"[8]، وبذلك لم يجعل الفضل لشاعر على آخر، ولا لزمن دون آخر، بل جعله مقياساً يصلح في كل وقت وحين، والحقيقة أن هذا الحكم الذي يدل على مدى تحرر الكاتب من العصبية والانحياز، التقى مع الآمدي في تفضيل الشعر المطبوع، لما كان سهل

(1) ديوان الأعشى ص 86.
(2) لسان العرب لابن منظور مادة عمد .
(3) سورة الرعد الآية 2.
(4) الجامع الصحيح للترمذي ج5 ص 12.
(5) شرح ديوان الحماسة المرزوقي ج 1 ص 8.
(6) عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم ، الحارثي ص 41 .
(7) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ص 9 .
(8) الوساطة بين المثنى وخصومه الجرجاني ص 33.

المتناول، قريب المأخذ، وإن كان الآمدي أكثر ميلاً إلى الصنعة التي تتجنب الإسراف الشديد كما كان البحتري، بينما الجرجاني يراها هامشية، كذلك نرى الآمدي لم يكن يهتم بالمعاني المولدة الجديدة، وقد رفضها، أما الجرجاني فقد اشترط أن تكون شريفة صحيحة، وبهذا يكون الجرجاني أوسع في نظرته من الآمدي، وإن اشترط تجنب الفلسفة في الشعر، أما ابن المعتز الذي كانت له آراؤه النقدية أيضاً في كتابه البديع، وإن ارتكزت على هذا الفن البلاغي فقد أشار إلى أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع، وأكد أن المحدثين لم يبتكروا توظيف المباحث البلاغية في أشعارهم، وهنا ندرك مدى الروح العلمية التي ميزت المرزوقي في دراسته، وإن كان يؤخذ عليه عدم تطرقه لدراسات متقدمة، كما كان قدامة بن جعفر قد اعتمده في كتابه نقد الشعر، الذي حاول فيه تأسيس قيم نقدية جديدة للشعر، أما عن بدايات إطلاق هذا المصطلح فقد كانت لفظه العمود قد وردت في عدد من أمهات الكتب مثل كتاب البيان والتبيين للجاحظ فقد ذكر مصطلح عمود الخطابة.[1]

أما عن ذكر لفظة العمود مضافة إلى الشعر فقد عرف عن البحتري أنه قال عن أبي تمام: "كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوم بعمود الشعر منه[2]، وهو الذي كان قبل المرزوقي، وقد ورد كذلك عند الجاحظ قوله " وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد " [3]، وهنا نلتمس أن هذا المصطلح قد عرف عند عدد من الأدباء قبل المرزوقي.

وكان يعني عندهم وضوح القصد، والابتعاد عن حوشي الكلام وغريبه، قال البحتري معبراً عن مذهبه (من الخفيف) :

حـــزن مســـتعمل الكـــلام اختيـــاراً ∴ وتجنـــــبن ظلمـــــة التعقيـــــد

وركـــبن اللفـــظ القريـــب فأدركـــ ∴ ـــن بـــه غايـــة المـــراد البعيـــد[4]

وهذا يعني أن كل من خرج عن ذلك قد غاص في معانيه، وجاهد في طبعه، وجعل من فهم شعره، أمراً يحتاج إلى الكثير من الجهد للكشف عن معاينه خارجاً على عمود الشعر، وبذلك عُد كل من اتبع منهج السابقين ونعني هنا الشعراء الجاهليين قد سار على عمود الشعر، أما الشعراء المجددون الذين كانت لهم مذاهبهم الأخرى دون الالتزام بما سار عليه أسلافهم فقد اتهموا بمفارقة عمود الشعر المعروف ويأتي في طليعتهم الشاعر العباسي أبو تمام وهو أبرز من اتهم بمخالفة عمود الشعر، وبالتالي عُدَ ابن الرومي خارجاً أيضاً عن عمود الشعر.

إن ما قدمه المرزوقي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام من حديث تناول فيه قضية عمود الشعر، يعد أول محاولة جادة لتحديد العناصر الأساسية لهذه النظرية وبيانها، فقد قال في مقدمته عن سبب بحثه " حتى يتميز تليد الصنعة من الظريف، وقديم نظام القريض من الحديث" [5]، فهو يرى أن العرب كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقارنة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه والمستعار له، ومشاكلة اللفظ والمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر"[6].

إذاً فهو قد حدد أبواب عمود الشعر كالآتي:

([1]) البيان والتبيين للجاحظ ص 18 .
([2]) الموازنة للآمدي ج1 ص 12.
([3]) البيان والتبيين للجاحظ ج2 ص 28 .
([4]) ديوان البحتري ص 637 .
([5]) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ج1 ص 8 .
([6]) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص8.

أولاً: شرف المعنى وصحته، ويقصد به أن تكون المعاني سهلة الفهم مستفادة من الكلام مبتكرة غير مسبوقة، مناسبة لمقتضى الحال، ولذلك يقول المتنبي (من الطويل):

وما الموت إلا سارق ذق شخصه ∴ يصول بلا كف ويسعى بلا رجل[1]

وقد جعل المرزوقي للمعنى معياراً، وهو العقل الصحيح والفهم الثاقب فقال:" فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء، مستأنساً بقرائنه، خرج وافياً وإلا انتقص بمقدار شعر به ووحشته" [2].

ثانياً: جزالة اللفظ واستقامته، فجزالة اللفظ قوة ومتانة، ذكر ابن منظور أن الكلام الجزل القوي الشديد، واللفظ الجزل خلاف الركيك[3]، ولعل المرجع في قياس جزالة اللفظ هو كلام العرب الفصحاء الذي يرجع إليهم في أمور اللغة، أما الاستقامة فيقصد بها اتفاقه مع أصول اللغة وقواعدها المتعارف عليها سالماً من اللحن والخطأ، أما عياره عند المرزوقي فهو الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار السليم، وهذا في مفرداته أو جملته مراعى لأن اللفظة تستلزم بانفرادها، فإذا أضافها ما لا يوافقها عادت الجملة هجيناً.

ثالثاً: الإصابة في الوصف وقصد بها التعبير الصحيح عن الغرض الذي وضعت من أجله القصيدة، سواء كان مدحاً أو ذماً أو غير ذلك ومن أمثلة ذلك قال أبو تمام في مدح المعتصم في انتصاره يوم موقعة عمورية (من البسيط) :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ∴ عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صعد ∴ والمشركين ودار الشرك في صبب [4]

وعيار الإصابة في الوصف" الذكاء وحسن التميز، فما وجدناه صادقاً في العلوق ممازجاً في اللصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه فذلك ولاسيما الإصابة فيه" [5].

رابعاً: المقاربة في التشبيه : ويعني به قوة التشبيه ووضوحه بين طرفي التشبيه المشبه والمشبه به، وهذا أمر عائد إلى فطنة الشاعر وحسن تقديره، ولعل أحسن التشبيه ما وقع بين شيئين بينهما من الاشتراك أكثر مما بينهما من الاختلاف، ومعيار المقاربة في التشبيه هو" الفطنة وحسن التقدير، فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس وأحسنه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليتبين وجه الشبه بينهما بلا كلفة إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له، لأنه حين ذاك يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس.[6]

خامساً: التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ويقصد به حسن تأليف الكلام ، فتأتي كل كلمة في موقعها مما يضفي على الكلام سلاسة وانسياباً.

سادساً: مناسبة المستعار منه للمستعار له، وعيار الاستعارة الذهن والفطنة، وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل، حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفي فيه بالاسم المستعار، لأنه المنقول عما كان له في الوضع إلى المستعار له فحسن الاستعارة من قريب التشبيه، وأن المشبه من أفراد المشبه به، وأوجب ذكر حرف التشبيه.

([1]) ديوان أبي الطيب المتنبي ج 3 ص 48 .
([2]) شرح ديوان الحماسة ص 11.
([3]) لسان العرب ابن منظور مادة جزل .
([4]) ديون أبي تمام ، ج1 ص 264.
([5]) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ص 9.
([6]) م ن ص 9.

سابعاً: مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، وعياره طول الدربة ودوام المُدارسة، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض، لا جفاء في خلالها، ولا نبو ولا زيادة فيها ولا قصور، وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني. [1]

فقد جعل" الأخص وهو الكامل لمثله، والبريء من العيب لمثله، وأما القافية، فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يستوفي المعنى بحقه واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقة في مقرها، مجتلبة لمستغن عنها "

وأورد في نهاية بيانها أنه من لزمها وبنى شعره عليها فهو المغلق المعظم والمحسن المقدم.[2]

وبذلك يكون المرزوقي لم ينكر على أبى تمام التزامه في بعض من قصائده بعمود الشعر.

إن حركة الشعر العربي في عصر بني العباس هي التي دفعت الكثير من النقاد والمهتمين بدراسة الشعر إلى البحث عن تقاليد الشعر العربي، التي تمثل طريقة العرب في أشعارهم، وذلك بقصد التمييز بين القديم والحديث، وكان رصد المآخذ والأخطاء التي وقع فيها بعض الشعراء طريقاً من طرق استبيان مفردات عمود الشعر، وهنا نتساءل لماذا خالف عديد الشعراء مذهب عمود الشعر وهو الذي دعا إليه جل علماء النقد والأدب، من أجل أن يكون الشعر سائغاً سهل المتناول لدى المستمعين، وهنا تستوقفني قصة كان قد أوردها أحد المصادر في هذه الدراسة مفادها " أن خلف بن أبي عمرو بن العلاء، وخلفاً الأحمر، قالا لبشار حين أنشد رائيته التي مطلعها: (من الخفيف):

بكـــرا صـــاحبي قبـــل الهجيـــر ∴ إن ذاك النجـــاح فـــي التبكيـــر

إنك أكثرت فيها من الغريب فقال نعم، بلغني أن سلماً يتناظر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان " إن ذاك بكرا فالنجاح في التبكير كان أجمل " فقال بشار بنيتها أعرابية وحشية [3] وأوضح أنه لو قال كما طلب منه لكان اتبع كلام المولدين، وهذا يدلنا على أن هناك من أقطاب الأدب كخلف الأحمر من كان يدعو إلى الالتزام والابتعاد عن مذهب المتأخرين، وإن كان مخالفاً لبنية القصيدة والتزامها بعمود الشعر، ولعل تدرج خلف الأحمر في مدرسة البصرة التي دعت إلى الأخذ من القديم وترك الحديث على عكس مدرسة الكوفة التي عرف عن زعميها حماد الراوية موقفه المحايد من القديم والمحدث، كان حسب اعتقاد الباحث سبباً في دعوته بشار إلى تغيير بنية البيت، لأنه حسب ما يرى يزيد البيت جمالاً، وهنا يمكننا الإجابة عن هذا التساؤل بأن الشعراء الذين كانوا قد خالفوا عمود الشعر كانوا يرون في ذلك سبباً لإضافة الجمال اللغوي والحسي على أشعارهم، وربما كان هذا سبباً أيضاً في تسمية ابن المعتز لكتابه البديع.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول إن نظرية عمود الشعر واسعة الآراء والجنبات، وإنه لا يمكن أن يخرج عن نطاقها شاعر عربي في كل شعره، وإنما تخرج قصيدة لشاعر أو أبيات في كل قصيدة، ولذلك " أخطأ كثير من الناس في فهم هذه النظرية، وحملوها من السيئات الشيء الكثير، ولكنها أساس كلاسيكي رصين، فالثورة عليها لا تكون إلا على أساس رفض الشعر العربي جملة"[4].

إن فكرة عمود الشعر ما هي إلا محاولة لإيجاد نظام يحتكم إليه الناقد، لمعرفة جيد الشعر من رديئة، وذلك عن طريقة المفاضلة والموازنة بين الألفاظ والصور، أو يمكن القول إنه تعبير عن حاجة الناقد إلى القانون أو المثل أو الأساس الذي يمكنه من الحكم على الأشعار وإجراء المقايسة والمفاضلة غير أن هذه المعايير كما يقول الدكتور محمد هدارة " ليست إلا ضوابط جزئية لا تتناول الصورة الكلية للقصيدة، أو إنتاج الشاعر الكلي، كما أنها لا تعني المقارنة بين شاعر وآخر، لأن القصائد لا تسير وفق نمط محدد، ولم تتبع منهجاً واحداً، ولم تراع مواقف بعينها[5].

([1]) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ص11.

([2]) م ن، ص11.

([3]) عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم الحارثي ص 54.

([4]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس ص 409.

([5]) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب ، للدكتور محمد مصطفى هدارة ص 96 .

ومع هذا فإن فكرة عمود الشعر ترسم في النهاية أساساً عقلياً للشعر، فتضيق المجال أمام الخيال، وتحاول إحالة الشعر إلى قوالب متجانسة في الموضوع والشكل والأسلوب، وتهتم بمواطن الشبه والتوافق ومن ثم الموازنة فيما بينها، ولكن بشكل جزئي، ومع هذا يمكن القول إن عمود الشعر ورغم عنايته ببعض الضوابط الموضوعية لم يلغ خصوصية الفن المحدث، وانتمائه إلى بيئات جديدة، وإنما كان الاهتمام من ورائه بتأصيل الشعر، ورده إلى الأصول القديمة، وذلك بمراعاة الخصائص اللغوية والفنية التي يمتاز بها شعر الجاهلية، ولذلك عُد عمود الشعر من أهم الأسس التي وضعت للحفاظ على هذه الأصالة، ولذلك حرص الجرجاني على ضرورة إيجاد معيار فني يحتكم إليه النقاد ويجعلونه مقياساً للشعر، وذلك لما كثرت الخصومة بين القدماء والمحدثين فقال كما أسلفنا " إن العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبقة فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب [1]، وسرعان ما أخذ الآمدي هذه المقاييس فناصر البحتري لأنه حسب رأيه لم يفارق عمود الشعر، وأخذ على أبي تمام عنايته بالغموض والمعقد في شعره" [2].

ونتيجة لاحتدام هذا الصراع بين أنصار القديم والحديث اشتد إحساس النقاد بضرورة إيجاد معايير يحتكم إليها للتخفيف من حدة هذا التناقض بين الاتجاهين القديم والمحدث فقد أخذ الكثير من النقاد بالتطور الذي شمل نواحي الحياة في العصر العباسي فقال الجرجاني في دلائله " فلما انتشر الإسلام واتسعت ممالك العرب، كثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتطرف، واختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها على القلب موقعاً، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، كما اختصروا ألفاظ الطويل فإنهم وجدوا للعرب نحواً من ستين لفظة أكثرها بشع شنع كالغنشط العنطنط والعشنق والجسرب والشوقب... فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان وقلة نبو السمع عنه وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل، حتى تسموا ببعض اللحن، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق، فانتقلت العادة وتغير الرسم وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال" [3] .

وقال الصولي " إن ألفاظ المحدثين مند عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمتنقلة إلى معان أبدع، وألفاظ أقرب، وكلام أرق، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع أو الابتداء والطبع والاكتفاء، وأنه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عياناً، كما لم ير المحدثون ما وصفوه مشاهدة، وعانوه مدة ذكرهم من ذكر الصحاري والوحش، فهم في هذا أبداً دون القدماء كما كان القدماء فيما لم يروه أبداً دونهم" [4].

وبهذا يكون الإقرار بحتمية التطور مع التقيد بالأصول القديمة التي تتفق مع روح التطور، فالمحدثون كما أشار الجرجاني اختاروا من كلام الأقدمين ألينه، واختصروا بعض ألفاظهم، أي أنهم لم يخترعوا كلاماً جديداً، ولم يلغوا ما ورثوه من أنماط لغوية، وإنما اعتمدوا في أشعارهم على الأخذ من القديم ما يوافق روح الحضارة، وهجروا ما ينافيها، وهذا ما قصده الصولي حين أشار إلى انتقال المعاني نحو التعبير عن الظواهر الجديدة، بمعنى أن الألفاظ القديمة تطورت على يد المحدثين، من حيث الاتساع في دلالتها لتستوعب حاجات جديدة.

وهذا التطور قد طرأ على عمود الشعر الذي لم يعد مقصوراً على ملاحظة وجه الشبه بين معاني القدماء والمحدثين، أو الموازنة بين الصور القديمة والمحدثة، وإنما أعيدت صياغته على يد المرزوقي ليصبح أشبه بمعيار نقدي له أصول وأسس منطقية وحدود عقلية ثابتة.

الخصائص الفنية لعمود الشعر

أولاً_ خصائص اللفظ

أشترط النقاد والدارسون في اللفظ الجزالة ، والاستقامة ، والمشاكلة للمعنى ، وشدة اقتضائه للقافية ، فالجزالة تعني ألا يكون غريباً ، ولا سوقياً مبتذلا ، يعرفه العامة دونما عناء ، والاستقامة تعني أن يكون جرسه

([1]) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص 33.

([2]) الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، للآمدي ص 98 .

([3]) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 99 .

([4]) أخبار أبي تمام للصولي ص 100 .

مستقيماً خالياً من تنافر الحروف ، وأن تراعى فيه اللهجات والأذواق ، فضلا عن أستعملها في أصلها ووضعها اللغوي لذلك عاب النقاد على أبي تمام قوله :

أني رأيت الشمس زيدت محبتاً لذى الناس أن ليست عليهم بسرمد[1]

فالمقارنة بين الشمس والسرمد لا يتأتى للمتذوق قبولها ، ونال بيت الحطيئة الاستحسان والذي قال فيه

هم الذين إذا ألمـــــــــت من الأيام مظلم أضـــــــــــاءوا[2]

فالإضاءة تتطلب الظلام ، وما استجد في الأيام من أحداث ، ولذلك اشترطوا شرف المعنى ، وصحته والإصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ثم التحام أجزاء النظم والتئامها ، وأن يسير اللفظ والقافية على حد سواء

ثانياً_ خصائص المعنى

وهي أن يقصد الشاعر فيه إلى الإغراب ، وأن يختار من الصفات المثلى إذا وصف أو مدح ، فإذا وصف فرساً يجب أن يكون كريماً ، وإذا تغزل ذكر كل أحوال حبيبته ومحاسنها ، وذكر صفاته كحسن وجهها وما إلى ذلك ، وإذا مدح فلابد من ذكر شرف المقام ، ولذلك عاب الآمدي على البحتري في موازنته قوله :

نصرت لها الشوق اللجوج بأدمع تلاحقن في أعقاب وصف تصرما[1]

وذلك لآن الآمدي يرى أن الشوق يشفيه البكاء ، ولا يزيد منه ، وأشترط الإصابة في الوصف ، وذلك بذكر المعاني العامة ، التي تلتصق بالموصوف بعيداً عن ذكر الصفات الخاصة له ، ولهذا كانوا يرون أن عمر رضي الله عنه كان لايمدح الرجل إلا بما فيه ، وأن تكون المقاربة في التشبيه مالا ينتقض عند العكس كتشبيه الورود بالخد ، والخد بالورود ، ثم مناسبة المستعار منه للمستعار له ، وهنا عيب على أبي نواس قوله :

بح صوت المال معـــــــــا منه يشكو ويبـــــــــــوح

فهو أراد أن المال يتظلم من إهانته وتمزيقه بالإعطاء لكرم صاحبه ، فلا صلة بين المال والإنسان

ثالثاً_ خصائص النظم والتركيب

النظم روح الأبداع لذى الشاعر وهو جوهر المعنى والقصد الذي يرمي إليه الشاعر[2]

وقصد به الانتقال بين أجزاء القصيدة ، كما جرت العادة بين شعراء الجاهلية ، وفيما بعد إلا أنه يمكن القول بأن هذه الأجزاء ، والتي تمثلت في الوقوف على الأطلال ،وذكر الديار، والحبيب ، والرحلة الى الحبيبة ثم المدح أو غرض القصيدة ، لم يكن هناك رابط بينها يمكن أن يمثل وحدة عضوية حقا ، إنما ربط الشعراء والنقاد بينها فقط لأجل الربط ، وإن كان هذا الربط قد سماه المهتمون بالأدب التخلص من غرض إلى غرض ، وهو ما أهتم به المتأخرون دون شعراء الجاهلية والإسلام، وطوروه حتى ظهر ما يسمى بوحدة القصيدة ، أما عن عمود الشعر والبحث فيه فيمكن القول أنه نتج من خلال الصراع النقدي بين القديم والمحدث فقد عدا أنصار القديم المحدثين بأنهم لم يلتزموا ببنية القصيدة العربية ، وخالفوا عمود الشعر ، الذي عد مقياس الجودة والبراعة ، غير أن هناك من تعصب للقديم فقط لقدمه ليس إلا ، كأبي عمر بن العلاء ، وتلميذه الأصمعي ، وماقول الأصمعي عن أستاذه " جلست إليه عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي" سوى ذليل على شدة الصراع النقدي بين المدارس في القديم ، لكن رغم هذا التعصب المبالغ فيه إلا أننا نجد بين ثنايا الكتب بعض الآراء النقدية لهؤلاء العلماء والرواة ، تشير الى أن بعض شعر المحدثين قال نال في نفوسهم شيئاً من الرضى والاستحسان كقول أمام البصريين " لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته" [1]فضلاً عن أن بعض العلماء لم يكن يهتم بهذه الآراء وإنما كان مقياسه جودة النظم وروعة التصوير ، كقدامة بن جعفر ، والجاحظ ،وحماد الراوية وغيرهم كثير .

لقد فطن نقاد العرب في موازنتهم بين الشعراء ، وفي الخصومة بين المحدثين والقدماء إلى أثر البيئة الطبيعية ، وكذلك الثقافية ، وجعلوها مقياساً في الفصل بين الأشعار المحكمة وهي عندهم المحكمة الوصف ، المستوفاة

---

[1]في الأدب العباسي ص321

[2]في النقد الأدبي ، علي صبح ص42

[1] الموازنة للآمدي ص68

[2]التجديد والخلاف بين القديم والمحدث ، عبداللطيف عمران ، جامعة دمشق2003

[1] قراءة في القصيدة العباسية ، عادل الدسوقي ، منشورات دار الفارابي بيروت 2009ص80

المعنى ، السلسة الألفاظ ، الحسنة الديباجة ، فأهتم ابن سلام الجمحي في طبقاته بهذا ، فقد ميز بين شعر البدوي والحضري ، وذكر أن كثرة الشعر لها عواملها التي تساعد على توفرها ككثرة الحروب ، وعد قريش من القبائل قليلة الشعر لقلة حروبها ، وعد الأوس والخزرج من القبائل كثيرة الشعر ، غير أن هناك من يرى أن ابن سلام لم يستطيع أن يجعل من مقياس البيئة مقياساً له أسسه وقواعده وإنما تناوله باستطراد
دونما تحليل

بعض آراء العلماء في عمود الشعر

_ابن قتيبة

يرى ابن قتيبة كما أسلفنا أن نهج القصيدة عند شعراء الجاهلية ، ومسلكها القديم من الوقوف على الأطلال ، واستبكاء الأصحاب، ونعث الآثار وحتى الوصول إلى الغرض منتهي الإجادة والشاعرية ، فقال " والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد"[1] وقال في موضع أخر " وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، فأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لان المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير" [2] وقد سانده في رأيه هذا بعض المحدثين أمثال بدر الدين القاسم في كتابه النقد والأدب[3]

الخاتمة:

احتدم الصراع قديماً وحديثاً بين الأدباء والنقاد وكذلك الشعراء أي الأزمنة العربية كان فيه الشعر والأدب في أوج قوته وعنفوانه ، كما كان الصراع محتدماً حول المقاييس والأسس التي يمكن اعتمادها المعيار والفيصل في تفضيل زمان على أخر أو عصر على عصر أو شاعر على شاعر، وقد كان هذا في مرحلة معينة من تاريخ الأمة العربية وهما القرنيين الثاني والثالث الهجريين وهي فترة حكم بني العباس للأمة العربية والإسلامية والتي امتدت زهاء أربعة قرون ، هذا الصراع كان ولا يزال مثار اهتمامي ورغبتي في دراسته وبين نتائجه ، والحقيقة أن هذا الموضوع شائك كبير يصعب دراسته بشكل مستوفي في ورقات أو أبحاث أو حتى مؤلفات كبيرة رغم محاولة علماء لهم تاريخهم في البحث والدراسة أمثال الجاحظ وابن قتيبة والآمدي وابن المعتز طرق هذا الباب والتعمق فيه ، الا أن هذا الباب لا يزال مفتوحاً أمام كل راغبٍ في الدخول والغوص في هذا الصراع ومحاولة فهمه كما أراد أصحابه من علماء الأدب العربي ، وقد قادني بحثي هذا إلى **النتائج التالية**

1- الصراع بين القديم والمحدث صراع أذواق فطرية وميل وتفضيل
2- كان للصراع الثقافي ومحاولة السبق في طرق الجديد أثره البالغ في هذا الصراع
3- تعد قضية عمود الشعر ركيزة أساسية التزام بها أغلب الشعراء العرب حتى قبل ظهورها
4- يعد المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام رائد تلك النظرية
5- كان هدف النقاد في المقارنة والمفاضلة بين الشعراء إيجاد نظام يحتكمون إليه في المقارنة والتفضيل

أما عن **توصيات الباحث** فإن مسألة البحث في المسائل المتعلقة بالموازنة والمقارنة تحتاج إلى جهدٍ بالغٍ وإطلاع كبير جدا، هذا الجهد لا يتوقف على كتاب معين أو مؤلفات محددة أو شعراء زمان دون أخر ، فقد كان ولاً يزال التسابق بين الشعراء قائماً طالما أن العرب تقول الشعر ، ولذلك وجب الاطلاع كثيرا وعدم التوقف ، كما يجب الأخذ برأي العلماء القديم منهم والحديث ، ومعرفة أن إيفاء الموضوع حقه والانتهاء منه ضربٌ من ضروب الخيال ، بل يجب أن يعرف أن دراسته هي إضافة إلى دراسات من سبقوه

---

[1] الشعر والشعراء ص8
[2] نفسه ص9
[3] راجع هذا الرأي في كتاب النقد والادب ، بدرالدين القاسم ، منشورات وزارة الثقافة السورية 2010ص145

المراجع:

القران الكريم

1- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري للامدي ، دار الكتب العلمية القاهرة1987

2- لسان العرب لابن منظور ، دار صادر بيروت 2006

3- الجامع الصحيح للترميدي ، تحقيق محمد عرفات ، دار الفكر العربي بيروت 1991

4- عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم ، عمار الحارثي ، دار المسيرة دمشق 1998

5- ديوان الاعشى ، تحقيق محمد سلام ، دار الفكر العربي القاهرة 1988

6- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق أحمد الرفاعي ، دار صادر بيروت 2005

7- البيان والتبين للجاحظ ، تحقيق عزت البحيري ، دار الكتب العلمية بيروت 1993

8- ديوان البحتري للصيرفي ، دار المعارف المصرية 1963

9- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، مطبعة الأنجلو المصرية 1965

10- ديوان أبو الطيب المتنبي ، تحقيق عارف الجزار ، دار المعارف المصرية 1977

11- ديوان أبو تمام ، تحقيق مصطفى حسان ، دار الشروق بيروت1995

12- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، دار صادر بيروت 2002

13- محاضرات في عنصر الصدق في الادب ، للدكتور مصطفى هدارة 2000

14- دلائل الاعجاز للجرجاني، تحقيق حمزة الحلبي ، دار الفكر دمشق 1964

15- اخبار ابي تمام للصولي ، تحقيق عزالدين الجرولي ، مطبعة المعارف المصرية 1983

16- في الادب العباسي ، نورالدين الصقر ، دار المنار للنشر السعودية 1996

17- في النقد الأدبي ، علي صبح ، مطبعة الأنجلو المصرية 1988

18- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الفكر العربي بيروت1990

19- التجديد والخلاف بين القديم والمحدث ، عبداللطيف عمران ، جامعة دمشق2003

20- قراءة في القصيدة العباسية ، عادل الدسوقي ، منشورات دار الفارابي بيروت2009

21- النقد والادب ، بدرالدين القاسم ، منشورات وزارة الثقافة السورية 2010